مهارة مهندسها وادماجه الشعائر الدينية بالحقائق الثباتية العلمية مع براعته في فن الهندسة فانهُ استخرج الحجارة للبناء وجعل مكانها معبدًا في شكل مقدَّس عند اهل زمانهِ

الاسكندر ذو القرنين

واقعة اسوس

صورة راس الاسكندر وهو بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرهِ

غادرنا الاسكندر وهو زاحف لملاقاة داريوس في واقعة اسوس وكان في الثالثة والعشرين من عمرهِ وقد مضى لهُ سنتان ونصف سنة على كرسي الملك بل في دار الحرب لانهُ قضى سنة ونصفًا يعزز سلطتهُ في بلاده وبلاد اليونان ثم زحف على آسيا فقهر جيوش الفرس في واقعة غرانيكوس ودخل سرديس ولم تمضِ عليهِ سنة حتى دوَّخ آسيا الصغرى كلها فدانت لهُ بلاد طولها مئتان وخمسون ميلاً في مثلها عرضًا وهي من اغنى البلدان ومنعها. فتحها باسم اليونان ولاجلهم ولكنهم لم يعرفوا لهُ هذا الجميل بل كانوا يتربصون به فرص الدهر. ولولا موت ممنون القائد اليوناني في جيش الفرس لسهل على داريوس ان يثير اليونان على الاسكندر

ويعاونهم باساطيله فيقطعوا عليه "خط الرجعة" اما وقد مات هذا القائد المحنك فلم يرَ داريوس بدًّا من ان يجيش الجحافل ويلاقي الاسكندر بنفسه. وترتَّب على ذلك ان رأى الاسكندر مجد الفرس وابهة ملكهم فزاد جرأة على الايغال في بلادهم وشوقًا الى الاستيلاء عليها وتغيرت طباعهُ من ذلك الحين والاَّ ليق تلميذ ارسطو نصيرًا للآداب والفضائل ولم نرَ في سيرته شيئًا يشينهُ ولتغير منهاج العمران ومصير الامم

ويقال انهُ لما بلغ داريوس موت ممنون ورأى انهُ لم يبقَ ما يمنع الاسكندر من الايغال في مملكة الفرس حتى عاصمتها جمع قوَّادهُ ومشيريهِ وسألهم عمَّا اذا كانوا يستصوبون خروجهُ اليهِ بنفسهِ فاشار اكثرهم عليهِ ان يجمع جيشًا عرمرمًا يلاقيهِ بهِ ويستأصل شأفتهُ. وكان ملوك الفرس يفعلون ذلك في غابر الازمان لكنَّ استتباب الامن في ممالكهم زمنًا طويلاً رفع عنهم هذه الكلفة فتثرت همتهم وضعفت عزائمهم

وكان بين مشيري داريوس رجل يوناني اسمهُ خاريديموس وهو شيخ مجرَّب وقائد محنك وكان حاقدًا على الاسكندر لانهُ عقا عن زعماء الثورة في اثينا ولم يعفُ عنهُ فهرب من وجهه الى بلاد الفرس وتطوَّع في خدمة داريوس فلما سمع ما اشار بهِ قواد الفرس خطأهم في رأيهم واشار على داريوس الاَّ يخرج بنفسهِ لقاء الاسكندر ولا يخاطر بملكهِ في مناوأة رجل أفَّاق بل يرسل عليهِ مئة الف مقاتل ثلثهم من مستوزقة اليونان ولا يقابلهُ هذا الجيش اولاً بل يرتد من وجههِ ويمدًّا رويدًا الى ان يوغل في البلاد فتتسع عليهِ ويسهل اخذهُ فيها. ومال داريوس الى هذا الراي لكن مشيريهِ سفَّهوهُ حاسبين ان خاريديموس انما اشار بهِ لتكون لهُ قيادة الجيش واتهموهُ بالخيانة وبانهُ اهان الفرس لانهُ زعم انهم جبناء لا يستطيعون ملاقاة المكدونيين. فاحتدَّ الحدَّة وخرج من التلميح الى التصريح وقال نعم انهم جبناء فسخط داريوس عليهِ وسلَّمهُ بسلطته فقضوا بهِ وقتلوهُ. روى هذه القصة ديودورس وكرتيوس ولم يروها اريانوس لان السجلات التي نقل عنها تستخفُّ بكل ما كان يقصد بهِ مقاومة الاسكندر ولا تعلق عليهِ شأنًا كبيرًا

وعبَّأ داريوس جيشًا جرَّارًا فيهِ ستون الف مقاتل من نخبة رجالهِ وهم كراديس الفرس المشهورة ومئة الف فارس واربع مئة الف راجل من اهالي فارس وماد والبابليين والارمن واهالي الشمال وبينهم الامراء والعظماء والخزانة وسار داريوس نفسهُ في قلب هذا الجيش ومعهُ امهُ وزوجتهُ وابناؤهُ وحاشيتهُ وهو بابهة ملكهِ وباذخ مجدهِ حتى كأن مملكة الفرس كلها خرجت لقاء الاسكندر خرجت من مدينة بابل ام المدائن وعاصمة الممالك وكأنَّ تلك المدينة العاتية

علمت من ذلك الحين ما يكون من أمر الاسكندر مع جنودها فاضمرت لهُ العداء حتى اذا جاءها بعد عشر سنوات جرَّعته غصص المنون

وبلغ الاسكندر وهو في شمالي آسيا الصغرى ان داريوس نهض للاقائه بجيش جرار تتربص في مكانٍ لكي يطمع به داريوس ويسير اليهِ الى جبال طورس . ولما بلغ طرسوس مرض فيها قال ارستوبولس انهُ مرض لكثرة ما تجشمهُ من المشاق وقال غيرهُ انهُ مرض لانهُ اغتسل وهو متعب . واشتدت الحمى عليهِ واصابتهُ نوب تشنج فيئس الاطباء من شفائهِ الاَّ رجلاً اسمهُ فيلبس اشار بأن يعطي مسهلاً . ويقال انهُ لما كان هذا الرجل يعهد لهُ الدواء جاءهُ

صورة رأس الاسكندر عن قطعة من نقود لسيماخوس احد خلفائهِ وعلى رأسهِ قرنا المعبود امون . وقد شاهدنا كثيرًا من دنانير الاسكندر وجدت في مدينة صيدا وعليها صورتهُ فلعل هذه الصورة واضعة لقب ذي القرنين من وجود القرنين فيه

كتاب من القائد بارمنيون يقول لهُ فيهِ ان داريوس رشا فيلبس هذا ليسمهُ في الدواء . وكان بارمنيون عظيم قواد المكدونيين واشدهم غيرةً على الاسكندر والغيرة تدعو الى سوء الظن . فاخذ الاسكندر كأس الدواء من فيلبس واعطاهُ كتاب بارمنيون وتجرَّع الدواء حالاً لكي يبقي من عقول رجالهِ الظنون ولاوهامهم حاسباً ان الملوك لا تعلم حقيقة الاَّ اذا رفعت عن هذه الحسائس

ونجى الاسكندر من الحمى وجاءتهُ البشائر ان الجنود التي تركها بحصار قلعة هليكرناسوس

فتحتها عنوة وقتلت سبع مئة من الفرس حاميتها واسرت الفاً منهم. فأُولمت الولائم وقامت الافراح والالعاب على جاري عادة اليونان . وتمهّل الاسكندر في جبال طورس لكي يغري داريوس باتباعهِ اليها لانهُ لم يرَ من الحكمة ان يلاقيهُ في سهول الشام الفسيحة فيكون المجال واسعاً لجيوشهِ الجرارة. وجعل المنجّمون يقولون لداريوس ان الاسكندر خائف منك واتحجم عن ملاقاتك وكرروا ذلك على مسامعهِ حتى صار يعتقد صحتهُ فقام بجيوشهِ قاصداً ان يقتفي خطوات الاسكندر حيث كان ويعفي اثرهُ. وقام الاسكندر للقائهِ وعبر مضيق كليكية المشهور (كولك بوغاز) فبلغهُ ان داريوس اتى من جهة الشمال الشرقي وصار وراءهُ ونزل في سهل اسوس شمالي بوغاز اسكندرونة فلم يكد يصدق ذلك فارسل بعضاً من رجالهِ في سفينة ليعودوا شمالاً ويستطلعوا خبرهُ فلم يسيروا طويلاً حتى رأوا معسكر الفرس فعادوا اليهِ واخبروهُ بما كان فجمع قوادهُ وقال لهم قد دنونا من العدو ونحن فئة صغيرة بالنسبة اليهِ ولكننا معتادون التقاء الاهوال وهو معتاد الترف والرفاهة . وبيّن لهم ان المكان الذي اختارهُ الفرس يضعف قوتهم لانهم لا يقدرون ان يحاربوا فيهِ كلهم ولذلك فالفوز محقق لهُ ولرجالهِ ونتيجة هذا الفوز لا تتقدّر فان قوة الفرس كلها كانت امامهم فاذا محقوها تمهّدت لهم ممالك اسيا اجمع وانتهت المتاعب والمشاق . ثم ذكّرهم بفعالهم الماضية وبلائهم الحسن في كل المعارك التي حاربوا فيها واشار الى ما فعلهُ هو منتصراً منهُ على ما لا تتمّ منهُ رائحة المدح لنفسهِ وختم كلامهُ بذكر زينوفون القائد الشهير الذي انتصر على ملك الفرس وجنودهِ ولم يكن معهُ سوى عشرة آلاف فارس من فرسان تساليا ومكدونية . فدبّت النخوة في نفوس القواد وتألّبوا حولهُ وقبضوا على يدهِ وطلبوا اليهِ ان يزحف بهم حالاً على العدو

فامر جنودهُ ان يأكلوا ويستعدوا فاكلوا وطابت نفوسهم ثم قام بهم وعبر مضيق كليكية ثانية وارتدّ الى سهل اسوس ونزل في طرفهِ الجنوبي وكان الفرس قد وجدوا بعضاً من جرحى المكدونيين في مستشفى اسوس فقتلوهم وهم يحسبون انهم اصطادوا الاسكندر وقطعوا عليهِ خط الرجعة لانهم اعترضوا بينهُ وبين بلادهِ . ولكن لم يكد داريوس يجيل طرفهُ في البلاد التي حولهُ ويرى ضيق السهل الذي نزل فيهِ حتى تجلّى لهُ انهُ غير صالح للنزال لان الجبال كانت عن يساره والبحر عن يمينهِ ونهر بنارُس امامهُ وكلها تسدّ مذاهبهُ وتمنعهُ من استخدام جيوشهِ كلها في وقت واحد فعزم ان ينتقل منهُ الى سهل آخر . لكن الاسكندر رأى ما رآهُ داريوس فقال هي فرصة يجب ان لا تفوت فقام في الصباح التالي (في اوائل نوفمبر من سنة ٣٣٣ قبل الميلاد) وسار بجنودهِ الى امام مهر بنارُس فرأى الفرس نازلين على ضفتهِ

الشمالية وكان عرض السهل حينئذٍ من سفح الجبال الى شاطئ البحر ميلاً ونصف ميل فقط (اما الآن فقد اتسع هذا السهل وصار عرضهُ خمسة اميال) فصفَّ جنودهُ حتى ملأ عرض السهل كلهُ لكي يمنع جنود الفرس من العبور عن ميمنته او ميسرته وتشضيله من ورائهِ فجعل فيالق المشاة في القلب وفرق الفرسان على الميمنة والميسرة ووقف هو مع كتيبة من الفرسان في الميمنة بجانب قلب الجيش. وكان جيشهُ كلهُ نحو ٢٨ الف مقاتل الكتيبة التي هو فيها نحو الف ومئتي فارس والى يمينهِ الميمنة وفيها نحو اربعة آلاف من الفرسان والمشاة وعن يسارهِ قلب الجيش وفيهِ عشرون الفاً وهي فيالق المشاة والى يسارهم الميسرة من الفرسان وفيها نحو ثلاثة آلاف ومع الميمنة والميسرة بعض الرماة

اما جيوش الفرس فكانت ستمئة الف مقاتل فاصطفت امامهُ على الضفة الشمالية وكان في القلب منها والمقدَّم مسترزقة اليونان وهم ثلاثون الفاً وقفوا امام قلب المكدونيين وعن يمينهم ويسارهم كراديس الفرس ستون الفاً وفي الميمنة والميسرة كتائب الفرسان وعبر بعضها النهر ووقف في سفح الجبال امام ميمنة الاسكندر. ووقف داريوس وراء مسترزقة اليونان واصطفت بقية الجيوش على جانبيهِ ووراءهُ فلم يتيسر لاكثرها الاشتراك في القتال

وانتظمت هذه الصفوف في مصافها وكأن داريوس اوجس في نفسهِ خيفة فمنع جنودهُ من الهجوم مفضلاً ان يبقى محتمياً بالنهر. ولم يسغ الاسكندر من ذلك لان جنودهُ كانت متعبة فودَّ ان تستريح قبل الهجوم ثم طاف بها ينتهض همتها ويذكّر كل كتيبة بفعالها المجيدة والمعارك التي فازت فيها فكانت الجنود تهتف بالدعاء لهُ وتطلب اليهِ ان يأمرها بالهجوم حتى امتلأت رؤوسها نخوةً وحينئذٍ عاد الى كتيبتهِ وهجم بها على ميسرة الفرس فمزَّق شملها كل ممزَّق. وهجمت ميمنة الفرس على ميسرة جنودهِ وهي من فرسان تساليا يحميها قليل من المشاة فكادت تفوز عليها واختل نظام فيالقهِ وهي تعبر النهر وضعفت الميمنة بخروج كتيبة الاسكندر منها فثبت قلب جنود الفرس كالطود الراسخ امام جنودهِ وكادت الدائرة تدور على فيالقهِ لكنهُ كان قد قبض على مفتاح النجاح لانهُ مزَّق ميسرة الفرس كما تقدم وبلغ صفوف المسترزقة من جناحها الايسر وبادرها بطعن يخطف الاحداق وضرب يفلُّ الدروع ويحصد الاعناق. ورأى مركبة داريوس وحولهُ نخبة قوادهِ وزهرة رجالهِ فقصد اليهِ ومعهُ فرسانهُ كالكواسر فباعوا الارواح بيع السماح وظلوا يضربون ويطعنون الى ان بلغوا المركبة او كادوا واعملوا رماحهم في جيادها فنفرت وكادت ترميهِ فاشفق ان يقع حيّاً في يد الاسكندر ووثب من المركبة وطرح عنهُ شعار الملك واعلى ظهر جواد وفرَّ هارباً. ولما رأت جيوش الفرس الارتباك

والاختباط في قلبها هلعت قلوبها وطرحت اسلحتها واركنت الى الفرار وتبعتها جنود الاسكندر واعملت السيف فيها ورأت الفرسان عن الميمنة ما حلّ بالجيش كلهِ فعادت على اعقابها مع ان الفوزكان لها وشاركت المنهزمين في الهزيمة وداست الشاة بحوافر خيلها. وجدّت جنود الاسكندر في اثر الفرس ولم تعدعنهم الاّ حينما خيم الظلام. ووقع من جيوش الفرس في ذلك اليوم مئة الف والباقون هربوا الى سورية او تفرّقوا في جبال كليكية وسلم من المستعرزقة ثمانية آلاف نجوا بانفسهم الى طرابلس الشام وركبوا السفن منها وساروا الى قبرص ولم يقتل من جنود الاسكندر سوى اربع مئة وخمسين رجلاً مئة وخمسين من الفرسان وثمانية من المشاة على اختلاف قليل بين المؤرخين. وترك داريوس امهُ وزوجتهُ وابنهُ وابنتيهِ في ساحة القتال وكثيرًا من الاموال والتحف ولم يكن ذلك كل ما يحتملهُ الفرس عادة في خروجهم للحرب لان اكثر عظمائهم ارسلوا نساءهم واموالهم الى دمشق لكن القليل الذي احتملوهُ معهم ادهش المكدونيين وكان فيهِ ثلاثة آلاف وزنة من الذهب. قال فلوطرخس " ولما رأى الاسكندر الاباريق والطسوت وحناجر الطيب وكلها من الذهب الابريز تبهر العيون ببديع صنعها وتطيب النفوس بعبير شذاها ووصل الى سرادق داريوس ورأى ما فيهِ من الارائك والموائد التفت الى رجالهِ وقال لهم هذا هو الملك "

اما امّ داريوس وزوجتهُ وبناتهُ فالمؤرخون متفقون على ان الاسكندر عاملهنّ معاملة لم يجرِ عليها الفاتحون قبلهُ عاملهنّ بما لامزيد عليهِ من الشهامة وكرم الاخلاق والترفّع عن الدنايا. قال اريانوس انهُ لما عاد الاسكندر تلك الليلة ودخل سرادق داريوس ليستريح فيهِ سمع نساء يتحنّ ويندبنّ فسأل ما الخبر ومن اين اتى النساء الى المعسكر فقيل لهُ ان ام داريوس وزوجتهُ وابناءهُ كنّ معهُ ولما بلغهنّ انك غنمت خيمتهُ وتوسمهُ حسبن انهُ قتل فجعلنّ يندبنهُ. فارسل اليهنّ ليونناتس احد اعوانهِ يقول لهنّ ان داريوس لم يزل حيًّا ولكنهُ ترك مركبتهُ وسلحتهُ واسلحتهُ فيها. فاتى ليونناتس اليهنّ واخبرهنّ بما قالهُ الاسكندر وقال لهنّ انهُ يبقي لهنّ القابهنّ وحاشيتهنّ لانهُ لم يحارب داريوس لمجرّد العداء لهُ بل لانهُ يقصد الاستيلاء على آسيا. ونقل فلوطرخس من كتاب كتبهُ الاسكندر الى بارمنيون يقول فيهِ انهُ لم يرَ زوجة داريوس ولا صح ان يُذكر جمالها في مجلسهِ. وكانت اجمل نساء عصرها

وجُرح الاسكندر في هذه المعركة جرحًا صغيرًا لم يمنعهُ من عيادة الجرحى في اليوم التالي لتطييب قلوبهم ومشاهدة قواد جيشهِ لتهنئتهم بالفوز المجيد الذي احرزوهُ وفرّق عليهم الاموال والغنائم ودفن القتلى بما يليق بهم من الاكرام واقام المآتم على ضفة النهر لرفس وهرفل

واثينا تذكارًا للقتلى الذين ضحوا حياتهم في خدمة وطنهم والنصر الذي أُعطوهُ

ثم بعث بارمنيون مع فرسان تاليا لفتح دمشق فجدُّوا السير اليها وفتحوها فوجدوا فيها ٢٦٠٠ وزنة من النقود المسكوكة و٥٠٠ وزنة من الفضة وسبعة آلاف دابة من دواب الحمل و٣٢٩ من القيان و٤٦ من ضافري الاكاليل و٢٧٧ من الطهاة و١٣ من صانعي الجبن و١٧ من مازجي الشراب و٧٠ من مروّضي و٤٠ من صانعي الطيوب . هؤلاء كلهم من خدم داريوس الذين تركهم في دمشق ومنهم يُرى مقدار الترف الذي كان الفرس منغمسين فيهِ فلا عجب اذا قهرهم ابطال معتادون شظف العيش كجنود الاسكندر

وبعث داريوس الى الاسكندر يطلب منهُ أن يرد عليهِ امهُ وزوجتهُ واولادهُ ووعدهُ ان يكون حليفًا لهُ ونصيرًا وذكّرهُ بما كان بين بلادهِ وبلاد الفرس من الصداقة في عهد فيلبس وارتكزركسيس وان فيلبس هو الذي فصم عراها وانهُ هو (اي الاسكندر) بادأهُ بالعداء لغير سبب وعاث في بلادهِ فاضطر ان يخرج بنفسهِ لقتالهِ ذودًا عن رعيتهِ وحفظًا لملك آبائهِ لا لغرض آخر

فكتب اليهِ الاسكندر يقول : جاء اباؤك الى مكدونية وبلاد اليونان وعاثوا فيها لغير سبب ما . والآن جُعلتُ قائدًا لليونان وخرجت للاقتصاص منكم بعد ان باديتمونا بالعداء فانك انت ورجالك اثرتم البرنشيين علينا وابي قُتل بدسيسة من رجالك وانت تفتخر بذلك بعد ان اغتصبت كرسي الملك في بلادك اغتصابًا وقتلت من هو احق بهِ منك فاسأت الى قومك ثم بعثت الرسائل الى اليونان تحرضهم على محاربتي ورشيتهم بالمال فلما رأيت رجالك يفسدون قلوب حلفائي عليَّ ويحاولون اثارة الفتن في بلاد اليونان اضطررت ان ازحف عليك وانت البادي بالعدوان . وقد انتصرتُ اولاً على قوادك ثم عليك وملكتني الالهة بلادك والنا الآن احمي رجالك الذين نجوا من الحرب ولجأوا اليَّ وقد انضموا الى جنودي من انفسهم فتعال اليَّ بنفسك وان خفت ان اسيء معاملتك فارسل اليَّ اولاً بعضًا من اخصائك حتى اعطيهم من الرهائن ما يكون ضمانًا لك ثم تعال اليَّ واطلب امَّك وزوجتك واولادك وكل ما تريد فلا امنع عنك شيئًا يقضي الانصاف ان اعطيك اياهُ . وفي المستقبل خاطبني كملك اسيا ولا تخاطبني كما يخاطب النظير نظيرهُ واطلب مني ما تشاء كما يطلب المرؤوس من رئيسهِ والاَّ فلا تجد مني الاَّ الشرَّ . وان كنت تنكر عليَّ حق التملك على بلادك فتربص في مكانك واستعد لحربي ولا تدرَّ من وجهي والاَّ فاتبعك حيثما تفر

ستأتي البقية